

البكاء

على غرناطة

محمد عبد القادر الفقي

حينما انهزمت جيوش أبي عبد الله آخر ملوك غرناطة، عاد إلى أمه باكية، يشكو إليها ضياع ملكه وانتصار النصارى فقالت له كلمتها المشهورة التي ما زالت تدوي في أذن الدهر: (ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً .. لم تحافظ عليه مثل الرجال). وها نحن أولاء اليوم نبكي «غرناطات» أخرى.

أنت أهملتُهُ فأضحى صريعاً	..	ابكٍ مثل النساءٍ مُلكاً أضيعاً
بل قواريرٌ قد عشقنَ الخنوعاً	..	ووطنٌ لم يَزِدْ رجالكُ عنه
دُكَّ، واحسرتاه، دكاً مريعاً	..	كل ما قد بناه كل جدودي
كيف تُمحي؟ أنت صرتَ خريعاً ^(١) ؟	..	سنواتٌ من البطولاتِ تُمحي
كيف أرضى .. أنا .. وليداً جزوعاً؟!	..	لست مني ولست قطٌ وليدي
فاحصد اليوم مُرَّةً والضريعاً	..	قد زرعتَ الأسى بقلبي جبلاً
وانتظر طعنة تمجُّ النجيعاً!	..	وابكٍ مثل النساء والطُم خدوداً

* * *

لَفَحَهَا حارقٌ يُذيبُ الضلوعاً	..	في فؤادي من اللظى زفراً
ما سيذكي البياض فيها سريعاً	..	وبعيني من سوادٍ انسحاقٍ
أين ملكٌ بناه «صقر» بديعاً ^(٢) ؟	..	أين بيتي؟ مرابعي؟ ذكرياتي؟
لا أرى في الديار إلا صدوعاً	..	لا أرى في السماء إلا ظلاماً
غارَ في العظم واستطاب الهجوعاً	..	فيلقُ الشر قد رمانا بسهم
خيلُها أدبرتْ وفَرتْ جميعاً	..	فالثغورُ التي تحدُّ بلادي
من دم المسك قد أذقتْ خضوعاً	..	والحصونُ التي سقاها جدودي
صوتهُ تاه لم يُصادفَ سميعاً	..	والجهاذُ الذي به عزَّ قومي
أنبثتْ ذلّةً وعاراً فظيعاً	..	وإذا الأرضُ لم تُصْنِها أسودٌ
لن يُجِيلَ البُكا خريفي ربيعاً	..	فابكٍ ما شئتَ أنْهراً من دمٍ
وسألقي الغداة ذلاً وجيعاً	..	سوف أحيأ أسيرةً يا لبؤسي

(١) إشارة إلى عبد الرحمن الداخل (صقر قريش).

(٢) الخرج والخرع: الضعيف.

ليتني مت قبل هذا فإني

* * *

لن أطيّق الصليب يوماً ضجيعاً!

عشت أعمى مُسربلاً في الخطايا

∴

لاهيأ فاسقاً خنوعاً وضيعاً

∴

داهم الموت في الصّباح الجموعا

∴

فاجنّ ما قد زرعت نصلاً وقيعا

∴

وتلقّ الهجاء سُماً نقيعا

∴

لم تكن في الوغى صبوراً شجيعا

∴

فانتظر مقصلاً وموتاً فجوعا

∴

واشهد الكفر إذ يقيم النطوعا

∴

لن تراه ولن يحلّ الربوعا

∴

كيف يجني الرّعاع منها زروعاً؟

∴

كيف تضحي الغداة حصناً منيعاً؟

* * *

قف بغرناطة وراقب أساها

∴

كيف سيق السّراة فيها قطيعاً؟!

∴

وأزالوا جذوعها والفروعا

∴

في حانا ولم يراعوا رضيعا

∴

فقيام الجنود أضحي ركوعا

∴

لم يعدّ وقعه يلاقي شفيعا

∴

لذئاب العدا دعاة يسوعا

∴

وكهول الطّبّاء تبكي التبيعا

∴

والروابي تننّ تهمة دموعا

∴

وبلاداً عبيرها لن يضوعا

∴

وعلى العبد أن يكون مطيعا

ولّي الله .. حكمه في ماضٍ

ثلاث من القمم في الأدب الأفغاني

د. محمد أمان طافج

اللغة الأفغانية (البشتو) إحدى اللغات الإسلامية التي تنتمي إلى فصيلة اللغات الآرية، وهي وثيقة الصلة بالتراث الإسلامي، تستمد منه مفاهيمها الفكرية والأدبية، ومذاهبها الثقافية والاجتماعية، وليست غريبة على الآداب العالمية.

الأفغان في ذلك المزج الثقافي، وفي هذا الازدهار الأدبي.. وقد سيطر الإسلام على الحياة الأدبية والعلمية في أفغانستان، وعلى لغاتها الأدبية وعلى رأسها اللغتان البشتونية والدرية، فظهر واشتهر في الأدب البشتوني (الأفغاني) عدد ضخم هائل من الأدباء والشعراء، منهم على سبيل المثال.. خوش حال خان، وعبد الرحمن بابا، وأحمد شاه الدراني..

أما خوش حال خان: فهو زعيم من زعماء الأفغان وشاعر من شعرائهم النابغين، يلقب بأبي الأدب الأفغاني.. صاحب مدرسة أدبية تتميز بأسلوب يمتزج فيه الفكر الأفغاني بالفكر الإسلامي، تخرج فيها أبنائه وأحفاده وأتباعه من بعده (٤). ولد الزعيم الشاعر الذي ينتمي إلى قبيلة ختك ببلدة «أكوري» سنة ١٠٢٢ هـ، وتوفي سنة ١١٠٠ هـ بمنفاه (٥). وكانت حياته مزيجاً من الأفكار الإسلامية والقومية والأدبية، يتردد صداها بين الأفغان حتى اليوم:

حزمت السيف الصارم غيرة على الأفغان.

قامت أفغانستان بمزج الثقافات (٢) المختلفة مزجاً رائعاً، مستخدمة في ذلك عملية الانتقاء والتصفية من ناحية، وعملية التأثير والتأثر من ناحية أخرى، وقد أصبحت هذه الثقافة الممزوجة بعد مرورها على مراحل العراك والصراع المعروفة ثقافة أفغانية إسلامية، سرت في أصول لغة البشتو وأدبها سريان الدم في عروق الأفغان، فازدهر كل منهما بالآخر، ازدهاراً عظيماً، قلما يعثر على نماذج لها في غيرها من البلاد والآداب والثقافات،

الأدب البشتوني معيار يعكس حياة الأمة وتاريخها

ومن الحضارات والأفكار (٣) والآثار. وكان العنصر الإسلامي أولاً وقبل كل شيء، ثم العنصر الفكري الأفغاني المتأثر به ثانياً هما المحور الأساس الذي اعتمد عليهما

واللغة البشتونية (الأفغانية) من اللغات الإسلامية، تكتب بالحروف العربية، بزيادة عدد من الحروف لا توجد في الهجائية العربية، ومنذ القديم كتبت بالحروف الخروشتية (١)، كما كتبت بغيرها من الهجائيات القديمة المختلفة قبل كتابتها بالحروف العربية، ولها لهجتان رئيستان: الشرقية والغربية، ولكل منهما ما يميزها عن الأخرى في نبرات الأداء ونغمات الصوت، وفي تناسب التعبير وتناسق التصوير.

والأدب البشتوني (الأفغاني) ترجمان صادق لعواطف الأمة الأفغانية ومشاعرها، تنعكس عليه حياتها، وتاريخها. وهو معيار لكل ما يتردد في هذه الأمة من حرب وجهاد، ومن اضطراب واستقرار، إنه فن يتعشقه الأفغان، وتتعلق به قلوبهم، وتطرب له مشاعرهم، وهو الذي يصور الحياة الأفغانية في جبالها وسهولها، ووديانها، ويقدم لنا نماذج أدبية حية رائعة تمثل فيها تاريخ هذه الأمة، وتنعكس في مرآتها صور الحوادث التي صادفتها وتصادفها في تاريخها القديم

الشاعر الوجداني عبد الرحمن من العلماء الحماة، ومن الدعاة الهداة يدعو الله أن يجعل الديار الأفغانية معطرة بشعره الذي يتضمن مبادئ الإسلام وقيمه وأهدافه التي وضعها الإسلام، وشرحها نبي الإسلام، وهو يدرك ما لشعره من تأثير عظيم في نفوس الأفغان:

رباه، شعري الذي يجعل بلاد الأفغان معطرة
اجعل كل شطر منه ضفيرة من صفائر الحسان (١٦).
يقول رجال الأدب الأفغاني إنه
كان شديد الورع والوقار، طيب الأقوال
والأفعال، ومن مزاياه المستنبطة من
روح شعره أنه كان كريم السجية، يترفع
عن المدح، شديد المؤاخذة لنفسه،
شديد الإحساس، كثير الخلوة والتأمل:
إنني أجيد فني المدح والهجاء إجادة تامة
ولكنني لا أشعر بالرضا والسرور بمثل هذه الأمور (١٧).
فلا عجب أن يكون عبد الرحمن
أكثر شعراء البشتو قبولاً وتقديراً، وأن
ينال مكانة مرموقة في عالم الأفغان..

وأما أحمد شاه بابا: فهو قوي
الشعر، رصين الأدب، غزير العلم،
مؤسس الأباطورية الأفغانية الحديثة
التي كانت تمتد من مشهد إلى كشمير
شرقاً وغرباً، ومن سيحون إلى الخليج
شمالاً وجنوباً (١٨). ولد في هرات
حوالي ١١٣٥ هـ (١٩)، وتوفي سنة

الوجداني ولا يطرب لشعره، وهو
شاعر الأفغان الموهوب، وبلبلهم
المفرد.

ولد عبد الرحمن بابا على الأرجح
سنة ١٠٤٢ هـ ببلدة «بهادر كلي» وتوفي
ببلدة «هزار خاني» سنة ١١٢٨ هـ (١٣).
ويرجع نسبه إلى قبيلة «مومند» الشهيرة،
وبعد أن درس العلوم الرائجة في عصره

عندما نظر مؤسس الدولة الأفغانية إلى الجهاد بمنظور الإسلام

انقطع إلى عبادة الله، واعتزل الناس.
وكان منذ الطفولة ميالاً إلى التدين، فلما
أنهى المراحل الدراسية والعلمية عاد
إلى العبادة والزهد، ونضجت شاعريته
الوجدانية، وكملت مواهبه الروحية
والمعنوية..

أنا عبد الرحمن أطلب الحماية من العلم
الذي لا يمت إلى الدين والعقيدة بصلة (١٤).
والمبدأ الذي اختاره عبد الرحمن
في حياته العملية والشعرية هو الثبات
على الإسلام، وعدم التظاهر في العبادة
وفي غيرها من الأعمال الصالحة، والزهد
في الدنيا، انظر إليه هو يقول:

أنا عبد الرحمن أرغب في الحماية من زهد فيه رياء
إن الزهد الذي يحتوي على الرياء جزاؤه عذاب (١٥).

إنني «خوش حال» من قبيلة الختلك غيور الزمان (٦).
كان يجيد اللغة العربية، وينشد
الشعر بالأفغانية والفارسية والأردية،
ويبلغ عدد مؤلفاته ٢٥٠ كتاباً (٧).
والموجود منها حالياً ١٤ كتاباً (٨). وهو
قائد النهضة الثقافية والأدبية في بلاد
الأفغان (٩).

خاض في حياته وكافح في
جبهات عديدة، يبدو فيها تارة قائداً،
وتارة أخرى عابداً، ومرة واعظاً، ومرة
أخرى فيلسوفاً، ويظهر أحياناً كأنه
حكيم صوفي من الأتقياء. وفي الحق
أنه كان كذلك.. ومن أقواله في بعض
ذلك شعراً:

الابن الذي يموت فداء لقومه هو الذي

يرفع رأس أبيه عالياً في أرجاء العالم (١٠).
بطولة الأسود وشجاعتهم لا تعتمد على الجيوش
إنهم يعتمدون في ذلك على أنفسهم
وحدها (١١).

كان زعيم الأفغان شاعراً مطبوعاً،
نطق بالشعر وتأتى له وهو ابن ست
عشرة سنة (١٢)، ذاق في حياته الحلو
والمر، ومنها تكونت شاعريته الفذة،
ولم يترك موضوعاً إلا وتحدث عنه في
آلاف الأبيات من قصائد شعره، فهو
بحق شيخ الأدب الأفغاني، وسلطان
المعاني، وعاشق الحرية.

أما عبد الرحمن بابا فهو الشاعر
الوجداني عبد الرحمن بن عبد الستار
الشهير «برحمان بابا» أكثر الشعراء
الأفغان شهرة وقبولاً، فليس في بلاد

أفضل رضا: تاريخ نشر البشتو

٢٢٩ بريس بشاور ١٩٦٨ .

(٦) كليات خوش حال ختك ٥٢،

طبعة بشاور، وكبرو: بتهان ٣٤٢

مرجع سابق.

(٧) حبيبي: بشتانه شعراء

١٦١:١ مرجع سابق.

(٨) مجلة البشتو ٧ عدد اكتوبر

١٩٨٧ م.

(٩) سيد بهادر شاه كاك خيل: بشتانه

د تاريخ به رنا كي ٧٥٩-٨٠٩، وطائر: روهي

أدب ٢٨٩ مرجع سابق.

(١٠) حبيبي: بشتانه شعراء ٥٦:١ مرجع سابق.

(١١) المرجع السابق.

(١٢) مجلة البشتو ٧ عدد اكتوبر ١٩٨٧ م.

(١٣) د. رحمان بابا ديوان، المقدمة ٣٥-٣٨، طبعة

كابل، ١٣٥٦هـ-١٩٧٧ م.

(١٤) ديوان عبد الرحمن ١١٦ مقدمة سيد رسول رسا،

طبعة بشاور. ١٩٨٧ م.

(١٥) د. رحمان بابا ديوان ٣٨، مرجع سابق.

(١٦) المرجع السابق.

(١٧) ديوان عبد الرحمن، مقدمة مولانا عبد القادر .

(١٨) دائرة المعارف الإسلامية ٣٤٨:٢-٣٥٧ الترجمة

العربية.

(١٩) حبيبي: بشتانه شعراء ٣٢٨:١ مرجع سابق.

(٢٠) كاك خيل: بشتانه، تاريخ به رنا كي ٨٨١ مرجع

سابق.

(٢١) ديوان أحمد شاه، نقلاً عن محمد نواز طائر: روهي

أدب ٣٨٤ مرجع سابق.

(٢٢) ديوان أحمد شاه، نقلاً عن محمد نواز طائر:

روحي أدب ٣٨٣ مرجع سابق.

(٢٣) المرجع السابق ٣٨٤ .

تكوين شخصية فارس الأفغان وشاعرهم
الفذ هو الولاء الإسلامي، والانتفاء
الأفغاني، والأدب البشتوني. والبيت التالي
من شعره يشير إلى ولائه الإسلامي:

إنني أقوم بتسخير البلاد وفتحها بفضل من الله..
وبفضل من الله الحبيب العليم أخرج إلى كل جهة ناصراً مستمراً (٢٢)
وهذا البيت ينظر إلى انتبائه الأفغاني:

إنني آنسى عرش دلهي حين أعيد إلى ذاكرتي
قمم جبال أرضي الأفغانية (البشتونية) (٢٣)

إن بيتاً واحداً من شعر الأمبراطور
كان كفيلاً أن يملأ أرجاء أفغانستان،
ويشغلها بالجهاد، ويرفع أمبراطورية
الأفغان الحديثة إلى مسارج النجوم في
السموات العليا، وقد كان..

الهوامش

(١) أحمد علي كهزاد: تاريخ أفغانستان ٢:٢٨٩ وما

بعدها كابل ١٣٢٥هـ.ش.

(٢) مير غلام محمد غبار: أفغانستان در مسیر تاریخ

١٥٩ وما بعدها - كابل ١٣٤٦هـ - ١٩٦٧ م.

(٣) راجع: أرنولد توينبي: بين أمودريا وجننا- الترجمة

العربية- القاهرة.

(٤) عبد الحي حبيبي: بشتانه شعراء كابل ١٣٢٠هـ

ومحمد نواز طائر: روهي أدب ٢٨٧ جدون بريس

ط. ثانية ١٩٨٦ م.

(٥) سر اولف كبرو: بتهان الترجمة الأردنية ٣٢٦-٣٤٢،

بشتو أكبريمي يونيورستي بيشاور ١٩٨٨، ومحمد

١٨٦هـ (٢٠)، ودفن في قندهار
العاصمة الأفغانية الأولى.

فتح أحمد شاه الدрани الهند خمس
مرات، وأشهر فتوحه فيها معركة «باني
بت» التي حلت الهزيمة فيها على
البوذيين وهم يتوثبون على المسلمين..
كان فارس الأفغان، وشاعرهم المغرد
قوي العزيمة في الجهاد، راسخ الإيمان
به، ينظر إليه بمنظار الإسلام، ويقوم به
كمبدأ فرضه الله عليه:

يا أحمد، إن أيام هذه الدنيا المحدودة تمضي سريعة على الجميع
جاهد، فإن الأفغان سيفنخرون بيطولتك في وقت آخر قادم (٢١).

عاش الأمبراطور الشاعر حياة
البطولة والفداء، وخاض معارك إسلامية
ظهرت فيها جرأته، وإيمانه بالجهاد،
ودفاعه عن الإسلام والمسلمين، كما ظهر
فيها إقدامه، وحسن درايته بالحروب،
واعتزازه بالبطولة:

عش حياة البطولة على بريق السيف يا أحمد
انهض، وقم بجولات النصر، وانج للفتح نحو كل الديار
لم يكن أحمد شاه بابا من أشهر
الملوك الأفغان فحسب، بل بالإضافة إلى
ذلك كانت شهرته في عالم الشعر
والأدب، وفي دنيا العلم والمعرفة، وفي
الورع والتقوى تفوق ذلك، وديوان شعره
مرآة تمثل شخصيته، وجوانب من
صفاته، وبيئته. ومن أهم ما ساهم في

أثبت أي علماء موسوعة صفاء في كتاب
وسع شهرته. نشر كتابه - قله منه كل من
علي من منتظرين بدراسة فلسفة بديلة
والفلسفة الإسلامية بشكل خاص. ومعرفة
مسطحات أصعب كل من الفلاسفة

وهو أيضاً مرجع زائد للتمهين بقدراسات
التيوية وبخاصة هؤلاء الذين يولون بمحاولات
في تتبع مسار حياة الفلاسفة العربية
ثم هو ألة طبعة للتعلمين في ميادين العلوم
التجوية، والفكرية، والدينية والعروضية، وفي
علوم الفلكية، والفلسفة الطبيعية (الفيزياء)
والطب، والفقهيات، والفكرات، وغير ذلك من
العلوم والعلوم منذ نشأتها عند العرب حتى عصر
الحرف في القرن الحادي عشر للهجرة.

والكتاب أيضاً من على تفسير معاني آيات
القرآن الكريم والأحاديث النبوية. فهو بهذا، وبشي
من غير من كتبه التفسير وشروح الحديث في
تفسير الوصول إلى هذه المعرفة



أحد الكتب الجامعة الكبار عند فيه ابن الأثيري
الذي ماوقع في كلام الناس (في صلواتهم، ودعائهم،
وتقربهم إلى ربهم)، ثم إلى ما وقع في محاوراتهم
ومخاطباتهم من أمثال العرب وكلامها فبعد إلى ما
كان من هذا الجنس فتنبيهه، وقيد منه نحواً من
ألف نص (٨٤٥)، استشهد عليها من أي الكتاب
العزيز، ومن حديث المصطفى ثم من كلام الصحابة
وكلام سائر العرب، ونثر من غريب اللغة و من
شواهد الشعر، وذكر من اختلاف الطعام في مذاهب
التفسير، وفي وجوه العربية، ما كان معه غاية
من الغاليات .

